PSYCHOLOGY AND EDUCATION (2025) 62(04):760-772
ISSN: 1553-6939

Algerian composed poetry -Term, roots and purposes -

Medjdoubi Atmane[1]

[1]Lecturer Class B, Higher School of Teachers - Bouzareah (Algeria).

The E-mail Author: medjdoubi.atmane@ensb.dz

Received: 09/09/2024 **Published: 18/04/2025**

Abstract:

The subject of Algerian composer poetry is the focus of a critical discussion in which critics and researchers fought in the field of popular literature, especially in terms of controlling the term and knowing the roots of this art. This article was based on the revelation of the multiple opinions of scholars and critics on determining the term of composer poetry in terms of meaning first and in terms of the concept secondly, and the most prominent different points of view that shaped the trends of critics and scholars and the conclusions of their opinions on the subject. In addition, the article dealt with the roots of Algerian composer poetry, the stage in which it appeared and the conditions that helped its spread and broadcast, and mentioned a group of its first pioneers with models of the poems of some of them for the purposes in which they excelled.

Keywords: Folk Poetry Composers Term, Roots, Early Pioneers

الشـــــــعر الملحـــــــون الجـــــزائـــــري-المصطلح والجذور والأغراض-

مجدوبي عثمان[1]

[1]أستاذ محاضر ب، المدرسة العليا للأساتذة - بوزريعة- (الجزائر).

الملخص:

يشكل موضوع الشعر الملحون الجزائري بؤرة نقاش نقدي خاض فيه النقاد والباحثون في حقل الأدب الشعبي خصوصاً في ناحية ضبط المصطلح ومعرفة جذور هذا الفن، وقد وقف هذا المقال على كشف اللثام حول تعدد آراء الدارسين والنقاد حول تحديد مصطلح الشعر الملحون من حيث الدلالة أولاً ومن حيث المفهوم ثانياً، وأبرزَ وجهات النظر المختلفة التي شكلت اتجاهات النقاد والدارسين وما خلصت إليه آراؤهم في الموضوع وإلى جانب ذلك عالج المقال جذور الشعر الملحون الجزائري والمرحلة التي

ظهر فيها والظروف التي ساعدت على انتشاره وذيوعه، وذكر طائفة من رواده الأوائل مع نماذج من أشعار البعض منهم في الأغراض التي برعوا فيها.

الكلمات المفتاحية: الشعر الشعبي، الملحون، المصطلح، الجذور، الرواد الأوائل.

-المصطلح والجذور والأغراض

1- المصطلح والجذور:

أ- المصطلح:

لا نكاد نعثر على ما بيد النقاد والدارسين قديما وحديثا من اتفاق أو توافق في وجهة النظر الواحدة إزاء مسألة توحيد دلالة مصطلح الشعر الملحون، إذ ما تزال الندوات والملتقيات الوطنية والدولية تبحث في تيمة المصطلح مدا وجزرا بين اللحن اللغوي واللحن النغمي. والسائد عند عامة الناس وخاصتهم "أنه شعر بلغة لا إعراب فيها، فكأنه كلام فيه لحن، وهذا الاشتقاق باطل من وجوه لأننا لا نقابل الكلام الفصيح بالكلام الملحون، وإنما باللهجات العامية، ولم يرد هذا التعبير عند أحد من الكتاب القدماء لا بالمشرق ولا بالمغرب، ولا يعقل أن يسمي أحد شعره بكلمة تنم عن الجهل"[1]. وكثير من شعراء الملحون عندنا كما سأذكر بعضا منهم لاحقا أهل أدب وعلم ودراية بعلوم الدين واللسان ومن حفظة كتاب الله العزيز، فكيف لمن كانت حياته كلها لفن الكلمة الخالدة وسبيلا في الحياة الروحية والصوفية المتعالية أن ترضى نفسه بهذا التعيين المقيت لأنفس ما تختلج به مشاعره الفياضة ووجدانه المتقد بأنفس المعاني وأجمل العبارات وأعذب الألحان. ولذلك علينا صرف النظر عن الناحية الدنيا من القصد الذي تريد العامة إضفاءه على جنس الملحون من الركاكة واللحن اللغوي القاصر عن الإبانة والتبليغ،واعتبار الملحون خلاصة ما جادت به قريحة الشعراء من شريف المعاني ونبيل الكلام ينتخب للتغني به على عذب الألحان وأجمل الأنغام.

ولا شك أن الذين وضعوا هذا المصطلح لهذا الجنس الأدبي قد"اشتقوا هذا اللفظ من التلحين بمعنى أن الأصل في هذا الشعر الملحون أن ينظم ليتغنى به قبل كل شيء"[2]، وهذا الرأي يجد صداه القوي فيما عرض له العلامة عبد الرحمان بن خلدون عند حديثه عن الشعر باللغة العامية وعن أشعار العرب وأهل الأمصار للعهد الذي عاش فيه حيث قال:"فأما العرب أهل هذا الجيل المستعجمون عن لغة سلفهم من مضر، فيقرضون الشعر لهذا العهد في سائر الأعاريض على ما كان عليه سلفهم المستعربون،ويأتون منه بالمطولات مشتملة على مذاهب الشعر وأغراضه من النسيب والمدح والرثاء والهجاء ويستطردون في الخروج من فنٍّ الى فنٍّ في الكلام،وربما هجموا على المقصود لأول كلامهم،وأكثر ابتدائهم في قصائدهم باسم الشاعر،ثم بعد ذلك يشبون.فأهل أمصار المغرب من العرب يسمون هذه القصائد بالأصمعيات نسبة الى الأصمعيّ رواية العرب في أشعارهم...وربما يلَحِّنُون فيه ألحانا بسيطة لا على طريقة الصناعة الموسيقية.ثم يغنون به"[3]. ويشير ابن خلدون الى أن أهل أمصار المغرب لهذا العهد استحدثوا فنا آخر"كثير التداول في نظمهم يجيئوون به مغَصَّنًا على أربعة أجزاء يخالف آخرها الثلاثة في رَويَّه،

1 – محمد الفاسي: معلمة الملحون، ج1.مطبعة المعارف الجديدة–الرباط، المملكة المغربية،1986م. ص29.

2 – المرجع نفسه: ص 29.

3 – عبد الرحمان بن خلدون–المقدمة–الفصل الستون/ص 603.

ويلتزمون القافية الرابعة في كل بيت إلى آخر القصيدة شبيهاً بالمربع والمخمس الذي أحدثه المتأخرون من المولدين ولهؤلاء العرب من هذا الشعر بلاغة فائقة وفيهم الفحول والمتأخرون عن ذلك"[4].

وقد نفى ابن خلدون علة تسمية هذا الشعر بالملحون لعلة ذهاب النحو عنه جاعلاً حد البلاغة فيه حصول الملكة والطبع وفي هذا يقول:"والكثير من المنتحلين للعلوم لهذا العهد،وخصوصًا علم اللسان،يستنكر هذه الفنون التي لهم إذا سمعها ويمج نظمهم إذا أنشد،ويعتقد أن ذوقه إنما نبا عنها لاستهجانها وفقدان الإعراب منها وهذا إنما من فقدان الملكة في لغتهم فلو حصلت له ملكة من ملكاتهم لشهد له طبعه وذوقه ببلاغتها إن كان سليماً من الآفات في فطرته ونظره، وإلا فالإعراب لا مدخل له في البلاغة ،إنما البلاغة مطابقة الكلام للمقصود ولمقتضى الحال من الوجود فيه، سواء أكان الرفع دالا على الفاعل والنصب دالاً عن المفعول أم بالعكس، وإنما يدل على ذلك قرائن الكلام، كما هو في لغتهم هذه، فالدلالة بحسب ما يصطلح عليه أهل الملكة. فإذا عُرف اصطلاح في ملكة واشتهر صحت الدلالة، وإذا طابقت تلك الدلالة المقصود ومقتضى الحال صحت البلاغة، ولا عبرة بقوانين النحاة في ذلك وأساليب الشعر وفنونه موجودة في أشعارهم هذه ما عدا حركات الإعراب في أواخر الكلِم، فإن غالب كلماتهم موقوفة الآخر، ويتميز عندهم الفاعل من المفعول والمبتدأ من الخبر بقرائن الكلام لا بحركات الإعراب"[5].

وثمة من الباحثين المختصين من ناقش موضوع اللحن في الشعر الشعبي وعلى رأسهم الباحث المغربي الكبير"عباس الجراري " فقد ناقش هذا الموضوع من ناحيتي اللغة والاستعمال معًا، وفي معرض الرد على الذين يرون أن كلمة الملحون ترجع إلى معنى الغناء يقول: "والحقيقة أننا في محاولة التعليل أمام افتراضين،مصدرهما معنيان من معاني اللحن،هما:الغناء والخطأ النحوي، ثم يضيف وقد استبعد محمد الفاسي أن تكون التسمية مشتقة من اللحن بالمعنى الثاني،لأن الفرق الأساسي بينه، وبين الشعر الفصيح، أن الملحون ينظم قبل كل شيء لكي يُغَنَّى"[6]، وهكذا فإننا نجد على الأقل توافقا بين عمالقة الأدب الشعبي حول ملاءمة تسمية الشعر الشعبي بالملحون من جهة التغني به على ما أكد ذلك قبلهم العلامة ابن خلدون كما أشرنا إلى ذلك.

وبرأي المرحوم التلي بن الشيخ فإن الجراري لا يدعم رأيه بأدلة تاريخية تثبت أن الغناء قد تم بالفعل في مرحلة تالية لنظم الشعر، وإنما يذكر أن كلمة الملحون قد أطلقها القدماء على ما يقابل الشعر المعرب"[7].

ويضيف التلي بن الشيخ بأن الجراري يرى"أن الشعراء المغاربة قد أطلقوا تسميات كثيرة على أشعارهم، ولكن الشائع عند الدراسين هو إطلاق كلمة الملحون على الشعر المغربي، ورغم هذا الشيوع

---

4 – المرجع نفسه.

5 –عبد الرحمان بن خلدون ،مرجع نفسه /ص604،603.

6 –عباس الجراري الزجل في المغرب القصيدة–مطبعة الامنية (الرباط)1970م/ص55.

7 –التلي بن الشيخ:دور الشعر الشعبي الجزائري في الثورة 1830–1945م،الشركة الوطنية للنشر والتوزيع–الجزائر1983م ./ص374.

فإن الكاتب يذهب الى القول[8]:"وقد تكون لتسمية الملحون الغالبة على الشعر المغربي، وما يوحي به الشبه بينها وبين تسمية الملحون التي تطلق على القصائد التي كانت تنظم في الأندلس خالية من الإعراب، ما يدعو الى النظر بأن الشعر المغربي ربما كان امتداداً لهذه القصائد"[9].

أما عبد الله الركيبي فقد علل كلامه في موضوع اختيار كلمة الملحون على الشعر الشعبي الجزائري قائلاً:"وقد اخترنا مصطلح الشعر الملحون دون غيره من المصطلحات الأخرى التي استخدمها الباحثون مثل:الشعر الشعبي أو العامي، تماشياً مع ما شاع في بيئة المغرب العربي، التي عنيت بدراسة هذا الشعر، فجمعته وسجلته، وقد اتخذ هذا الشعر اللهجة العامية، أو الدارجة أداة له، وبذلك كان تعبيراً عن مزاج العامة"[10].

والواقع أن عبد الله الركيبي اقتصر عمله على جانب جزئي من مدونة الشعر الشعبي وهو الشعر الديني تحديداً ولذلك لم يشر إلى وجود تسميات أخرى لهذا الجنس في مسرح الإبداع الشعري الشعبي، وربما أخذ بمبدأ الأثر الفني والبعد الجمالي لهذا النوع الذي أختاره للدراسة بما فيه من تعدد في الأغراض وحضور كبير لجمهور متذوق. وحيث يحضر الجمهور يحضر الإيقاع واللحن، وهو ما أثبته في قوله:"إن كثيراً من قصائد هذا الشعر وخاصة منه الزجل، إنما ألفت بقصد الغناء والتلحين، وبوجه خاص فيما له صلة بموضوعنا "ونعني به الشعر الديني،مدحاً و تصوفاً، لأن الهدف هو الوجدان الصوفي الذي يقتضي تمايلاً واهتزازاً خاصاً يصاحب الإنشاد"[11].
ويبدو أنه من الصعب الوصول إلى أمر فاصل في هذا الموضوع بل يبقى محل تأويل وتخمين يبتعدان عن اليقين العلمي وبلوغ الرأي القاطع في هذا المجال، وحسب التلي بن الشيخ"سوف يبقى موضوع احتمال ما دمنا لم نعرف على وجه اليقين من هو أول من استخدم كلمة الملحون في الشعر الشعبي العربي، دون النثر كما أن القول بأن الشعر الشعبي إنما ينظم من أجل الغناء ليس رأياً يقينياً، والغناء بالشعر الشعبي لا يزال يلازم إنشاد الشعر خصوصاً في البادية، حيث يتسلى الشاعر بنظمه، ويردده في صورة غناء وترنم"[12]. ولا نطيل الحديث في هذا الموضوع ونكتفي بالأراء التي عرضناها بهذا الإيجاز وليكن عندنا رأي ابن خلدون في الموضوع أقرب إلى الصواب والمنطق طالما لا يوجد ما يدحضه ويقدم بديلاً عنه.

ب-المفهوم: بدأنا البحث في موضوع الملحون من حيث ضبط دلالة المصطلح قبل تحديد مفهومه ذلك أن الحبر الذي أساله في معترك النقاش النقدي يكشف عن حجم الغموض الذي اكتنف كلمة الملحون كمصطلح قبل العبور إلى مسألة المفهوم التي تبدو يسيرة طيعة في مسيرة العمل النقدي القديم والحديث ولم يجد النقاد كبير عناء في محاولة ضبط الملحون من الناحية الدلالية، وإن تباينت المواقف والرؤى في بعض الجزيئات فإن الإضافات التي ما فتئت تأتي بين الفينة

---

8 –المرجع نفسه/ص374.

9 –عباس الجراري–مرجع سابق–/ص53،54.

10 –عبد الله الركيبي:الشعر الديني الجزائري الحديث/ص322،نقلا عن التلي بن الشيخ –المرجع نفسه/ص 375.

11 –المرجع نفسه/ص330.

12 – التلي بن الشيخ:مرجع سابق/ص376.

والأخرى من قبل النقاد المعاصرين مكنت من إماطة اللثام عن جوانب هامة مما يتعلق بتحديد مفهوم الشعر الملحون وخلَّصَتْهُ من الشوائب التي علقت به في المحاولات السابقة في مجال اللغة ومجهولية المؤلف،والطباعة والتدوين،وغيرها من التقييدات التي ضيقت مساحة التعريف به.

فالشعر الشعبي الملحون"هو الذي يعبر بصدق عن حياة الشعب من أحاسيس وأفكار وقيم اجتماعية بلغة الشعب البسيطة التي يفهمها،وبالمعاني والصور التي تناسب ذوقه مما يجعله يتواتر بين الناس عن طريق الرواية الشفهية، ولا بأس عن طريق وسائل الطباعة أو وسائل الإعلام الأخرى"[13].

وقصيدة الشعر الملحون قصيدة حُبْلى بمختلف ألوان البلاغة العربية محملة بزخم كبير من الصور الفنية والدلالات والمعاني التي أودع فيها المبدع الشعبي روحه الفنية ومشاعره المتأججة بعفوية الخاطر وبصدق التعبير وبساطة الأسلوب.ولعل التعريف الذي جاء على لسان حسين نصار بخصوص الشعر الشعبي أجود ما قيل من التعاريف وذلك بقوله:"لا أظن أن أحداً يعارض في أن الصورة الصافية الدقيقة للأدب الشعبي هي التي تضم الأدب الذي يعبر عن مشاعر الشعب وأحاسيسه،فالأدب الشعبي إذن:هو الأدب الذي يصدره الشعب فيعبر عن وجدانه،ويمثل تفكيره ويعكس اتجاهاته ومستوياته الحضارية"[14].

وليس بعيداً عن هذا المعنى حاول غالي شكري تحديد مفهوم الشعر الشعبي بقوله:"فالشعر بصورة من الصور هو فن الذيوع والانتشار لما يحتويه بناؤه الموسيقي في اختيار الكلمات وطريقة وضعها إلى جانب بعضها البعض من قدرة على الانتقال من الفم إلى الأذن إلى القلب"[15].

فالشعر الشعبي برأي الباحث عبد الحميد بوسماحة:"وليد الجماعة الشعبية التي يعبر عن أفكارها ومواقفها ومصالحها وأهدافها"[16]، وواضح من أن مهمة المبدع الشعبي كشخصية مثقفة هي التعبير عما يتوافق وذوق الجماعة وأحلامها وطموحاتها.

ج- ***أوليات ظهور الشعر الملحون ورواده الأوائل:**

والشعر الملحون حسب الباحث عبد الحميد بورايو يشتمل"على مدونة واسعة من الشعر الغنائي الذي وصلنا مكتوباً،وظلت رواياته الشفوية متداولة في بعض المناطق،ينسب لمبدعيه الذين كثيراً ما ترد أسماؤهم منظومة في نهاية القصيدة،عرف عهود ازدهار مازال صداها يتردد إلى اليوم مثل القرنين السابع عشر والثامن عشر بتلمسان، والقرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين في مناطق الهضاب العليا.في البيض والأغواط وأولاد جلال وبسكرة الخ... لقي رواجاً بين أفراد الشعب، خاصة في المناطق التي عاش فيها الشعراء فرواه الرواة، وحاول تقليده الشعراء المبتدئون.ومازال يمثل جزءاً من الرأسمال الفني الموروث للمجتمع الجزائري وقد توجهت إليه العناية في السنوات الأخيرة،فحققت بعض

---

13 –أحمد قنشوبة:الشعر الغض–قراءات في الشعر الشعبي الجزائري ط1–دار الفارابي – بيروت–لبنان،1979م/ص317.

14 –حسين نصار:الشعر الشعبي العربي ط2–منشورات اقرأ– بيروت–لبنان،1980م/ص11.

15 –غالي شكري:أدب المقاومة–دار الأفاق الجديدة ط2–بيروت–لبنان،1979م/ص317.

16 –عبد الحميد بوسماحة:الموروث الشعبي في روايات عبد الحميد بن هدوقة–دار السبيل ط1–بن عكنون–الجزائر 2008م/ص119.

دواوينه، ونشرت أو أعيد نشرها وتناولته المذكرات الجامعية وأقيمت المهرجانات والملتقيات حوله،كما أصبحت أسماء بعض رواده ومبدعيه محل اعتزاز للجماعات المحلية فاكتسبت قيمة رمزية بحيث أطلقت على مؤسسات رسمية وعلى تظاهرات وجمعيات ثقافية ولائية"[17]، ويمكننا أن نذكر أسماء عمالقة هذا الفن الخالدين في واحة الملحون الجزائري،وهم على سبيل المثال: عبد الله كَرّيُو(الأغواط)،سيدي لخضر بن خلوف"عاش حوالي 125سنة" والجيلالي تادلس(مستغانم)، مصطفى بن إبراهيم(سيدي بلعباس)محمد بن قيطون وأحمد السماتي ومحمد بن يوسف(أولاد جلال بسكرة)وشاعر الحب والمقاومة محمد بلخير(البيض) وغيرهم كثيرون من أمثال محمد بن مسايب(تلمسان)،وسعيد بن عبد الله المنداسي(1583مـ-1677مـ) من فحول الشعر الملحون الجزائري والشاعر أحمد بن التريكي تصغير(تركي) ولد في أواسط القرن الحادي عشر ونشأ في تلمسان لقب بالزنقلي لأن أباه كان موصوفاً بالغنى وهو أيضاً من فحول الشعر الملحون الجزائري، وإبراهيم بن سمينة بوادي سوف، هؤلاء كلهم يمثلون النواة الأولى لظهور هذا الفن.

2- جذور الشعر الملحون في الجزائر

هذا وإن وجهات النظر لدى الدارسين حول أولية الشعر الشعبي الملحون الجزائري لم تستقر على رأي وموقف موحد نظراً لعدم وجود سندات توثيقية قاطعة تحدد المعين الأول وذلك يعود إلى التحولات الكبرى التي شهدها إقليم شمال افريقيا على مر التاريخ من أنواع المآسي والحروب والاستيطان ومن هنا يصعب على الدارس لملمة البعد التاريخي والثقافي لأمة شهدت مثل هذه الظروف. ورغم هذا فهناك من يربط ظهور الشعر الملحون في الجزائر باللغة العربية الوافدة على سكان المنطقة الذين لم يكونوا على سابق معرفة بها:"إلا بعد مجيء الإسلام وبالتالي فمن الطبيعي ومن البديهي ألا يكون هناك شعر بالعربية الدارجة التي شاع استعمالها في ما بعد القرن الخامس الهجري إثر استقرار الهلاليين ببلاد المغرب،أما الاحتمال الثاني فهو الأقرب إلى الصواب باعتبار أن التراث الشفوي في وسط لا يستخدم الكتابة،وفي ظروف ظهور ثقافة رسمية بلغة أخرى غير اللغة الأصلية للأهالي،محكوم عليه أن يتلاشى ويختفي وخاصة منه الشعر الغنائي ذو النزوع الفردي الذي لا يقبل الترجمة"[18].

ويؤكد الباحث العربي دحو حجم الصعوبة التي تكتنف موضوع الإرهاصات الأولى لظهور قصيدة الملحون الجزائري قائلا:"ليس من اليسير كما تقدم معرفة نشأة القصيدة الشعبية بدقة،وليس من اليسير معرفة خطواتها الدقيقة التي مرت بها في الجزائر،وكل الذي نملكه هو أن العهد التركي- وخاصة مرحلته الأخيرة - هو أخصب عهد عرفته القصيدة الشعرية الشعبية،ثم استمر الازدهار مع الاحتلال الفرنسي،فواكب الأحداث وسجلها،كما التفت إلى الحياة الاجتماعية فصور أهمها،ومن الطبيعي أن يكون الأمر كذلك لأننا ومع النص الشعري قبل ذلك- نسجل انحدار المستوى الثقافي ،وغياب التعليم،وانتشار

---

17 – عبد الحميد بورايو:قضايا الشعر الملحون الجزائري،مقال حول التصوف في الأدب الشعبي الجزائري،منشورات الرابطة الوطنية للأدب الشعبي– دار أسامة للطباعة والنشر والتوزيع– الجزائر 2007م ،ص19–20.

18 – المرجع نفسه/ص22.

الأمية،وسيادة الإقطاع،مما فتح أمام القصيدة الشعبية مجالاً واسعاً،ومكنها من احتلال المقام الأول لخدمة قضايا الإنسان والتعبير عن نوازعه ورغباته وحاجاته"[19].

3- أغـــراض الشـعر الملحـون الجزائـــــري

إن الواقع الذي لا يختلف حوله اثنان أن القصيدة الشعبية خلال العهدين التركي والفرنسي قد سايرت كل الأحداث الجسام التي تعرض لها الوطن والشعب، "فهناك بعض القصائد التي عبرت بدقة عن بعض الوقائع التي حدثت في الفترة التركية مثل قصيدة سعيد بن عبد الله المنداسي حول المجزرة التي اقترفها بعض الحكام الأتراك في تلمسان"[20].ويقال إنه هاجر إلى المغرب بسبب مواقفه العدائية من الأتراك حيث كان شاهداً على هجومهم على مدينة تلمسان فثارت ثائرته مستنكراً همجيتهم ومنددًا بعجرفتهم وهجاهم بقصيدته الخالدة التي نقتطف منها الأبيات التالية:[21]

*أمـن قـــادر بالله يـحمـي تلـــمســـانـا فإن بها من قوم يأجوج إخوانا.
*بنى السد ذو القرنين للناس رحمة فياليته من شوكة الترك هنَّانَا.

ولاشك أن"أقدم مدونة شعرية بالعربية الدارجة لهذا النوع الشعري يعود إنتاجها إلى القرن السادس عشر،وقد نشرت في نهاية الخمسينيات من طرف محمد بخوشة منسوبة للأخضر بن خلوف الفارس الشاعر الذي كان من بين المجاهدين الذين خاضوا معارك مقاومة العسكرية الإسبانية حول موانئ المنطقة الوهرانية"[22].فقد حضر الموقعة المشهورة "مازغران سنة 1518م بين الإسبان بقيادة شنظاظوش وبين الجيش الجزائري التركي بقيادة حسن باشا،نجل خير الدين،وقد أبلى فيها الشاعر بلاء حسنا،كما سجلها في قصيدة كاملة هي قصة مازغران يقول في بعض أبياتها:

*يا فارس من ثم جيت اليوم غـــــــزوة مـــــازغـــــران مـــــعلومـــة.
*يا عجلانا ريـض الملـــجوم رايت أجـــــــناب الشـــلومـــوشومة . *يا سايلني عن طراد الـــيوم قـصـــــة مـــــــــــزغـــران مـــعلومـــة. *يا سايلني كيف ذا القصة بين الـنصراني وخـــــير الديـــــن. *اجتمعوا في برهم الأقصى بجيش قوي جـــــــاوا متـــــهديـــــن. *ترى سفون الروم محترسة صبحوا في المنا أعداى الدين ."[23]

---

19 – العربي دحو:الشعر الشعبي ودوره في الثورة التحريرية الكبرى بمنطقة الأوراس، ج1،المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر1989م/ص39.

20 – عبد الحميد بورايو:الموروث الشعبي وقضايا الوطن. الرابطة الولائية للفكر والإبداع بولاية الوادي.2006م /ص86.

21 – محمد مفلاح:شعراء الملحون بمنطقة غليزان من العهد العثماني إلى غاية القرن العشرين،مطبعة دارهومة–بوزريعة–الجزائر:2008م،ص10.

22 – عبد الحميد بورايو:المرجع نفسه/ص22–23.

23 – أحمد قنشوبة:مرجع سابق/ص70–71.

وليس يخفى على الدارس لهذا الجنس الأدبي مدى تنوع الموضوعات التي طرقها فحول شعراء الملحون الجزائري وهي نفسها المناحي التي نعتادها في الشعر العربي الفصيح، فقد نظموا في الشعر البطولي الوطني ووقفوا إلى جانب الجهاد الجزائري التركي لإخماد شوكة الاستعمار الإسباني فغطوا المعارك وأحاطوا بتفاصيل الوقائع، وتغنوا بالانتصارات على العدو، ورفعوا من شأن القادة الأبطال، ومدحوهم وخصوهم بكل مظاهر التشريف والتبجيل، كما كان دور شعرائنا الشعبيين رائدا "خصوصا أولئك الذين عاشوا خلال فترة الاحتلال الفرنسي والذين التزموا لقضايا وطنهم التزاما عفويا فلم يهادنوا الاستعمار طيلة وجوده بالجزائر، ولعل أول ما يؤكد أصالته والتصاقه بالواقع وتسجيله للحوادث التاريخية أن أول من تحدث عن سقوط العاصمة الجزائرية سنة 1830م وبكاها بدموع حارة كان شاعرا شعبيا هو عبد القادر الوهراني "[24].الذي صور لنا لوعة الحزن والأسى التي عمت البلاد بعد أن كانت مزغنة سيدة البحار ترهبها الأجناس وتخشى بأسها الأمم:

الأيـــام يا إخـــوانـــي تتبدل ساعتـــــها والـــــــدهر ينقلب ويولي في الحين بعد ماكان سنجاق البهجة ووجـــاقها
الأجناس تخافها في البر وبحرين منـــــين راد رب ووفـــى ميجـــالـــــــها واعطـــاها أهل الله الصـــــــالحـــين
الفـــــرنســـيس أحـــرك لـــها وخـــذاهـــا لاهي مياة مركب لاهي ميتين بسفـــاينـــه يفـــــرص البحـــر قبـــالـــها كي جا من البحر
بجنود قويين غاب الحساب وادرك وتلف حسابها الـــــروم جـــاو للبهجة مشتدين رانـــي على الجـــزايـــر يا نـــاس حـــزين[25]

كما نظم فحول الملحون في الشعر الغنائي بسائر أنواعه، ونظموا في وصف مجالس الأنس والمرح[26]، مع التعرض لذكر محاسن الفاتنات في قصائد تحمل مثل هذه الأسماء: الريام ،الغزال، الغزيل ،الورشان[27]. وغيرها من رموز الجمال الطبيعي في عالم الطيور. وثمة قصائد كثيرة كان موضوعها وصف الجمال تعرف باسم من أسماء النساء، ففي ديوان محمد بلخير " تمثل قصائد الغزل ثلث عمله الشعري وعندما تسمعه ينشد الحب بعبارات بسيطة وحقيقية على إيقاعات نادرة وباستعارات خلابة تجعلك تميل إلى الاعتقاد أنه لم يحب إلا امرأة واحدة ويشهد على ذلك صدق نبراته.والحق أنه أحب كثيرات أو على الأقل تغنى بأكثر من واحدة:ملحة،فاطنة،عائشة،خيرة وغيرهن"[28]،فهو في محادثاته يمنح أفضلية الوصال ويضفي عليها لذة ثقافية مهذبة...فعندما أفصحت له خيرة أنها تود لو أصبح جارًا لها أجابها دون تردد:[29]

---

24 – أحمد الأمين:حيزية الملحمة الجزائرية،دار المصباح.الجزائر 1991م.ص8.

25 – التلي بن الشيخ:دور الشعر الشعبي الجزائري في الثورة. ص112.

26 – يُنْظَرْ محمد الفاسي معلمة الملحون مرجع سابق،ج1/ص35.

27 – الورشان نوع من الحمام.

28 – محمد بلخير:أشعار الهوى والوغى،جمع وتقديم بوعلام بسايح،المطبعة الشعبية للجيش،الجزائر 2007م/ص20-21.

29 – المرجع نفسه/ص22.

*قالت نشتـــــــي عزيز قـلبي اهنـــاي نضحي ليه اجوار في العرب.
*قلـــت لها يا طول سانجاق العناية شهـبـــة الآغـــا قـايد العـــرب.
*الجـــار تمـــيلّه لـــو يـــــولـــــي امراي والعـــشرة تـــعـدي بـــلا جـــرب. *والمحبوب اللي بعيد شوفه اسعاي نـــــزهـــة فـي قـلبـي إذا ارقب. وحسب الباحث العربي بن عاشور فإن للشاعر قصائد أخرى في نفس الموضوع تعذر الحصول عليها من حفيد الشاعر وذلك لما كان يظهر عليه من الخجل خاصة عند التطرق إلى مثل هذه المواضيع، فقد كان في غالب الأحيان يرفض الخوض فيها"[30].

كما يعد الشاعر مصطفى بن إبراهيم واحدًا من الشعراء الذين خصوا المرأة بقسم واسع من شعر الغزل وهاموا بالمرأة إلى درجة الإسهال،وقد أوصل الدكتور عبد القادر عزة عدد النساء اللائي قال فيهن مصطفى بن إبراهيم الشعر إلى عشرة نساء، والمرأة التي يناجيها تسكن في مكان بعيد ولا يمكنه الوصول إليها إلا عبر المرسول الذي يكون وسيطا بينهما ،وقد ورد على لسانه ما يلي:[31]

*نلـــقـــى ســـــرِيَّة من الرْيَـــأْمْ فِـــــــي روضة مُوجْهَا أفْنَانِي.
*نعـــــــــنيهم فرق من الحمام بين غرف في قصور عالـي.
*كشفـــت واحدة على اللثـام مجـــــارة خدهـــــــا يلالـــــــي.
*مرقت مصـــــحـــوم الأغـــيام بِمْسَـــايَسْ نبـــلهـــــــا بشـــالي. *قـــــــــلت لله ياشبـــــــــاب أرجـــى
لـــــي نـــعيـــــد ســـري. *رانـي في الحزن والحسرات
م الوحش اليوم ضاق موري. *مرو نرضـــــــاه راه غـــــاب
توحشت أنـــا حـبيـب عمري.

وفي ديوان محمد بن سهلة نعثر على نماذج من القصائد الرائعات نظمها في شعر الغزل يصور في واحدة منها"حبه وهيامه لفاطمة وخيبة أمله بعد ردها القاسي الذي سد أمامه كل الأبواب الممكنة للوصال حيث قال[32]:

*البَـــــــــــارَحْ يَالْعَـــــامَّـــة مْشَـــى رَسْلِـــي لْفَـــاطـــمَة.
*قـــالـــــلْها القـــــــــَايْـــمـــَة اللهْ بَـــــرْكَة مِن
الهـــــــجَرْ. *قَـــــالـــــَتْ لـــــهْ الـغـــــزَلْ مَنْ نَـــــهْوَى
طَالَقْ الدِلالْ. *لَوْ كَانْ يْذوَّب الجبَالْ بَبْكَـــاهْ وُيـقَـــسّـَمْ
الَـــحْـــــجَرْ. *والله لاَ شافْـــلِي خـيَال لو كان يطيع في الَبْحَر.

ولعبد الله بن كريُو صولات وجولات في شعر الغزل يصور في إحداها" قمر الليل" فقال:[33]

---

30 – العربي بن عاشور:أشعار محمد بلخير، شاعر الشيخ بوعمامة وبطل المقاومة.دار الشروق للطباعة والنشر والتوزيع،الجزائر 2008م.ص89.

31 – التلي بن الشيخ:منطلقات التفكير في الأدب الشعبي الجزائري،المؤسسة الوطنية للكتاب،الجزائر 1990م/ص89.

32 – التلي بن الشيخ: المرجع نفسه/ص93.

*اعطيتك مفتاح قلبي ودَّريته والسبَّة اللي بينا ورِّهالي. *صح كلامك في الوفاء كما قُلتيه قلت لي ما زال تشاق خيالي.
*أنت شفت ذا المنام وفسَّرتيه وعلمت بالجاية قلتها لي. *ونشرت ثوب المحبة وطويته واه جديد محبتك يرجع بالي.

إذن فغرض الغزل قد طرقه جل شعراء الملحون وتفاوتوا فيه من حيث الكم الشعري الذي خلفوه فيه. كما اختلفوا في شكل اللغة الموظفة لتصوير الحالات الوجدانية والعاطفية وما يتبعها من شدة الوجد ولوعة البعد والفراق.

والشعر الملحون كما قلنا سابقًا حاضر في كل تفاصيل حياة الإنسان يعايشها وسايرها ويكون خير ناقل لأحداثها. خصوصًا في العهد التركي والفرنسي حيث انطفأت جذوة الأدب الفصيح بضعف مستوى اللغة العربية، وتدهور الحياة الأدبية والثقافية في تلك الفترة نتيجة غياب الرعاية الرسمية من الحكام الأتراك وانعدام تشجيع الشعراء والأدباء بشكل عام، مما مكن"القصيدة الشعبية من الانتشار بقوة وترشيحها لتتناول الموضوعات التي كانت في وقت ما وقفا على القصيدة المدرسية"[34]. فالمتصفح لدواوين الشعر الشعبي يجد نصوصًا شعرية تعرف بالمدائح النبوية سادت فترة من الزمن وفرضت سلطانها في ربوع البلاد. وثمة نصوص شعرية خاض فيها أصحابها في موضوع التصوف والمدح والرثاء.ولابأس أن نستشهد ببعض من عيون الشعر الملحون المتعلق بالرثاء الذي خلد به الشاعر ابن قيطون نهاية ملحمة حيزية الذوادية[35] الهلالية وقد صور ابن قيطون هذه القصة أحسن تصوير حيث ملأها بأعمق صور الإحساس المرهف والمشاعر النبيلة الصادقة التي تعبر عما تحسه نفوس العاشقين الذين اكتووا بنار الفراق ولوعة الحزن.

*عزّوني يا ملاح في رايس البنات.
*سكنت تحت اللحود نـاري مقديا.
*قلبي سافر مع الضامر حيزيا.

*تمت يا سامعين في الالف وميتين.
*كمل تسعين زيد خمسة باقية.

*شهر العيد الكبير فيه الغنايا.
*قلت عاللى زمان شفناها حية.
*قلبي سافر مع الضامر حيزية.

---

33 – التلي بن الشيخ:المرجع نفسه/ص97.

34– العربي دحو:مرجع سابق/ص41.

35– هي بوعكاز حيزية بنت أحمد بن الباي من عرش الذواودة بطن من بطون بني هلال.ينظر أحمد الأمين.حيزية،ص29.

كما يمكننا أيضا التمثيل لشعر التصوف لبعض الفحول من شعراء الملحون أمثال سيدي الأخضر بن خلوف،يقول في مستهل القصيدة التي تصدرت الديوان:[36]

*أحـــســـن مـــا يقـــال عندي بـــاسم الله وبيـــك نـــبدا.
*حبّـــك في سلطان جسدي ماعـــزَّك يـــاعـــين وحدا.
*قدر النـــــــخلة اللي تسدِّي تبني شهدة فوق شهـــدا. *يا مـــحمـــــد أنـــت سيدي صلى الله عليـــك لـــــبدا.
*اللـــــهـــــم صـــل وســـلـــم طول الدهر على نبيـنا.
*قدر النجوم الليل الأظـــلم والأمـــــــطار النازلـــــينا.
*واستخلاف الحوت الأبكم في البحـــــور الغامقيـــنا.
*الغزل في خشبه مسدِّي والمنسوج قميص وردا. *الشعر سلك حرير بيدّي ما حملت بضناه دودا. *يا مـــحمـــد أنـــت سيدي صلى الله عليك لبـــدا.

يعلق الأستاذ عبد الحميد بورايو على موقع القصيدة من الديوان بقوله:"لم توضع في الديوان صدفة،إنها تمثل طقساً افتتاحياً لممارسة ثقافية تتصل بالمقدس،لذلك قرر سدنة الشعر الجزائري أن يجعلوا منها فاتحة حركة الشعر الملحون في الجزائر.فليس لدينا نص آخر نؤرخ به لمرتحل الميلاد والنشأة"[37].

لا شك أن هذه القصيدة تعتبر تجربة جديدة على تجربة سابقة خاص فيها الشاعر الأخضر بن خلوف فيما خاض فيه من الأغراض الدنيوية التي تغنى فيها بمباهج الحياة ومتعها خاصة في فترة شبابه،وهاهو الآن يصنع القطيعة مع التجربة السابقة ويفتح عهدًا جديداً في حياته الفنية"ليتفرغ لشعر المديح والتشوف للآخرة. وهكذا دخل المدنس عالم النسيان ولم يبق سوى المقدس"[38].تماشياً مع عمر الشاعر الذي أحس بمصير حياة الإنسان من تحول نحو الضعف ودنو الأجل،ومن ثمة لا مجال للعودة إلى مرحلة عاشت فيها نفس الشاعر صغرها وشبابها بكل تلوناتها .وهاهو أخيرًا يقرر الطلاق مع هذه المرحلة ويدفع بها نحو بؤرة النسيان[39].

*جوزت ميا وخمسة وعشرين حســـاب وتميت من ورا سنـــي ستـــة شهـــور. *منها مشات أربعين سنة مثل السراب واللـي بقى مشـــى في مـــــــــدح المبـــــرور.

والمتأمل لما ينضح به البيتان من دلالة يقف على امتداد عمر التجربة الصوفية في حياة الشاعر.إذ تغطي نصيبًا كبيراً من حياته الفنية وإذا ما تمعنا في الأربعين سنة الأولى من حياته وقطعنا منها طفولته ،وشبابه أمكننا تحديد عمر التجربة الفنية السابقة على التصوف في حياة الأخضر بن خلوف والتي لا يمكن

36- عبد الحميد بورايو:التصوف في الأدب الشعبي الجزائري ،مقال بعنوان قضايا الشعر الملحون الجزائري/ص24.
37 - عبد الحميد بورايو المرجع نفسه/ص24.
38 -عبد الحميد بورايو المرجع نفسه/ص26.
39 -المرجع نفسه/ص26.

مقارنتها بالمرحلة الثانية من عمره الفني الذي يمتد إلى نحو85 سنة كلها في التصوف والزهد والعبادة ومدح الرسول ﷺ .

ومن الشعراء الصوفيين الذين أكثروا من إنتاجهم الشعري في المدائح النبوية نجد الشاعر محمد بن مسايب التلمساني في إحدى روائعه حيث يقول:[40]

*الحـــــرم يـــــــا رســـــول الله الحـــــــــــرم يـــــا رســـــــول
الله. *حفيان جيت عندك قاصد الحـــــــــــرم يـــــا رســـــــول
الله. *خـــــوفـــي بـــزلـــتـي نـتـمـرمـــد يـــــوم الـــوقـــــوف
عـــــنـــــد الله. *حفيان جيت عندك قاصد يا صاحب الشفاعة
الأمجد. *عـــارى عـــلـيـــك يـــا مـــحمد عـــــار الـــــغـــلام علـى
مـولاه. *عارى عليك يا أبا القاسم صـــــاحـــــب الـــــلواء والخـــاتم.
*رانـــي عـــلـى أفـعـالي نـادم مـــــدريـــت
بـــــاش نـلـــقى الله. *ما تبت ما اقريت اللـــــازم إبـــلـــيـس
غـــرنـــــي بـــــهـــــــواه.

لاشك أن الدراسة الجادة والمعمقة لهذا التراث الفني الجميل سوف تكشف عن عراقة نصوص الشعر الملحون وأصالتها"سواء كان ذلك في جذورها الضاربة في أعماق التاريخ أو في انبثاقها من أصالة التربة الجزائرية أو في علاقتها بالتراث العربي الإسلامي .إذ لا ننسى أن شعرنا الشعبي قد أبدع في ظل القيم الفنية التي ورثها عن الشعر العربي القديم متأثرا من ناحية أخرى بالموشحات والأزجال الأندلسية خصوصا في أشكاله وأوزانه مع الاحتفاظ بمقوماته، وخصائصه الفنية آخذا كل عناصر الجمالية من اللغة العامية التي طوعها الشعراء موفقين بينها وبين اللغة الأم فجعلوها عذبة تنساب كما ينساب الماء الزلال"[41].

4- الخاتمة

وهكذا يمكننا أن نسجل حضور قصيدة الشعر الملحون في كل محافل الحياة الواقعية للشعب الجزائري السياسية والثقافية والدينية والتاريخية..فالمطلع على ما جادت به قرائح هؤلاء الفحول من الشعراء الشعبيين يجد روحهم الفنية والوطنية ترفرف فوق سماء الوطن وتنقل كل أحلام وآمال الشعب بصدق العاطفة وتأجج الفؤاد وتتعقب عجلة التاريخ لتسجيل لحظات الألم والبؤس والحرمان التي عاشها الشعب الجزائري على مر تلك الأزمنة.

40 –العربي دحو:الشعر الشعبي ودوره في الثورة التحريرية الكبرى/ص41.

41 – أحمد الأمين:حيزية. ص10.

قائمة المراجع

1- محمد الفاسي: معلمة الملحون، ج1.مطبعة المعارف الجديدة-الرباط، المملكة المغربية،1986م. ص29.
2- عبد الرحمان بن خلدون-المقدمة-الفصل الستون/ص 603.
3 -عباس الجراري الزجل في المغرب القصيدة-مطبعة الامنية (الرباط)1970م/ص55.
4-التلي بن الشيخ:دور الشعر الشعبي الجزائري في الثورة 1830-1945مـ،الشركة الوطنية للنشر والتوزيع-الجزائر1983م -/ص374.
5-عبد الله الركيبي:الشعر الديني الجزائري الحديث/ص322،نقلا عن التلي بن الشيخ -المرجع نفسه/ص 375.
6-أحمد قنشوبة:الشعر الغض-قراءات في الشعر الشعبي الجزائري ط1-دار الفارابي - بيروت-لبنان،1979م/ص317.
7 -حسين نصار:الشعر الشعبي العربي ط2-منشودات اقرأ- بيروت-لبنان،1980م/ص11.
8-غالي شكري:أدب المقاومة-دار الأفاق الجديدة ط2-بيروت-لبنان،1979م/ص317.
9 -عبد الحميد بوسماحة:الموروث الشعبي في روايات عبد الحميد بن هدوقة-دار السبيل ط1-بن عكنون-الجزائر 2008مـ/ص119.
10 - عبد الحميد بورايو:قضايا الشعر الملحون الجزائري،مقال حول التصوف في الأدب الشعبي الجزائري،منشورات الرابطة الوطنية للأدب الشعبي- دار أسامة للطباعة والنشر والتوزيع- الجزائر 2007م ،ص19-20.
11- العربي دحو:الشعر الشعبي ودوره في الثورة التحريرية الكبرى بمنطقة الأوراس، ج1،المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر1989م/ص39.
12 - عبد الحميد بورايو:الموروث الشعبي وقضايا الوطن. الرابطة الولائية للفكر والإبداع بولاية الوادي.2006م /ص86.
13 - محمد مفلاح:شعراء الملحون بمنطقة غليزان من العهد العثماني إلى غاية القرن العشرين،مطبعة دار هومة-بوزريعة-الجزائر:2008م،ص10.
14 - أحمد الأمين:حيزية الملحمة الجزائرية،دار المصباح.الجزائر 1991م.ص8..
15 - محمد بلخير:أشعار الهوى والوغى،جمع وتقديم بوعلام بسايح،المطبعة الشعبية للجيش،الجزائر 2007م/ص20-21.
16 - العربي بن عاشور:أشعار محمد بلخير، شاعر الشيخ بوعمامة وبطل المقاومة.دار الشروق للطباعة والنشر والتوزيع،الجزائر2008م.ص89.
17- التلي بن الشيخ:منطلقات التفكير في الأدب الشعبي الجزائري،المؤسسة الوطنية للكتاب،الجزائر 1990مـ/ص89.
18- عبد الحميد بورايو:التصوف في الأدب الشعبي الجزائري ،مقال بعنوان قضايا الشعر الملحون الجزائري/ص24.